بهم قاست الدنيا خطوباً جسيمةً فأصبح ذو الرأي الحصيف بهم يزري
لئن نالني الموت الزؤامُ فانهُ لخيرٌ من الإثراء مع وصمة الوزرِ
فقادره ذاك الحيث ووجهُهُ عليهِ سماتُ الغيظِ والحقدِ والشرِّ
فلم يكترث ذاك الفتى لوعيدهِ وعَدَّ بلايا الدهرِ من نِعَمِ الدهرِ
لذلك لم تلبثْ يدُ الله أنْ سخَتْ عليهِ بآلاءٍ تنـدُّ عن الحصرِ
فأقبلتِ الدنيا عليهِ بيُسرها فبات اليفَ السعد في حُلَلِ الوَفرِ
وعادَ الى اوطانهِ وشعارُهُ فضائلُ تكسو المرءَ برداً من الفخرِ
فلمَّا رأت تلك الأُمَيمةُ نجلَها على خيرِ حالٍ أهرقت دمعةَ البشرِ
وخرَّت على الأقدام تحمدُ ربَّها على نِعَمٍ جُلَّى تجوزُ مَدى الشكرِ
فيا قومُ ما احلى الحياةَ اذا انطوت وقد رُصعت أبرادُها بحلى الطُهرِ
وما ابهجَ الدنيا اذا زانَها التُقى وما أجملَ الآداب بالرجلِ المُثري

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي

النصرانيّة بين عرب شمالي سورية (تابع)

﴿ معان ﴾ قال ياقوت (٤ : ٥٧١) : «هي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء» وكان اهلها نصارى تحت حكم الروم والمالك عليها عند ظهور الاسلام فروة بن ابي عامر شيخ بني جذام النصارى. وبقرب معان عند مؤتة التي دعاها تاوفانوس المؤرخ (Théophane. I. 515. éd. Bonn) باسم (Mobous) حدثت وقعة سنة ٨ للهجرة بين جيوش المسلمين تحت امرة زيد بن حارثة وجعفر ابن ابي طالب وعبدالله بن رواحة و (بين) جيوش الروم تحت قيادة تاودورس

المعروف بالثائب وقد روى مؤرخو العرب انَّ عدد الروم كان مئة الف ومعهم من عرب النصارى مئة الف آخرون (١ فكان الانتصار للروم وهُزم المسلمون وقُتل قادتهم. لكنَّهم عادوا بعد ذلك بسنة فقلبوا الروم وفتحوا معان واستولوا على جهات البلقاء وقيل انَّ فروة صاحب معان اسلم

﴿ المدينة ﴾ كان اسمها في الجاهليَّة يثرب دُعيت بذلك على ما قيل باسم بانيها احد ابناء آرام وفي تقاليد العرب انَّ اوَّل من سكنها العمالقة ثم هاجر اليها اليهود في ازمنة مختلفة قبل المسيح على عهد موسى ويشوع بن نون وداود ثم في زمن خراب اورشليم وهيكلها على يد الاشوريين ثم بعد المسيح عند فتح الرومان للقدس الشريف فخرج منهم الى يثرب بنو قريظة والنَّضير وبَهدل ونزلوا واديين اسمهما بطحان ومهزور (٢ وبنوا هناك الآطام اي النازل المحصَّنة

وكانت ديانة هذه القبائل اليهوديَّة كما هو بديهيٌّ. غير انهم اختلطوا بقبائل أخرى عربيَّة كان البعض يسكن في جوار يثرب والبعض الآخر هاجر اليها من اليمن بعد تفرُّق اهله سواء كان بسبب سيل العرم كما روى العرب او لعلل أخرى

وما لا سبيل الى انكاره انَّ النصرانيَّة دخلت يثرب بعد السيد المسيح بقليل كما رأيت في ما نقلناهُ عن دعوة الرُّسل في الحجاز ووجود قبر واحد منهم في جبل العتيق من ناحية المدينة على ما نقلهُ الطبري

وليس من المستبعد انَّ بين القبائل اليهوديَّة المهاجرة من اورشليم قوم عرفوا النصرانيَّة ودانوا بها ولاسيما اولئك المتنصِّرين الذين سبق خروجهم فتح حاضرة بلادهم فالتجأوا الى المدن الواقعة ما وراء الاردن. فانَّهم اذ رأوا ما حلَّ بالمدينة المقدَّسة من الدمار توغلوا في بلاد العرب وسكنوا في جهاتها الداخليَّة

والظاهر انَّ بعض تلك البدع المعروفة بالبدع اليهوديَّة النصرانيَّة (sectes

---

١) هكذا روى العرب ومثلهم روى السريان كالياس النصيبيني اطلب تاريخ اليعقوبي (٢ : ٦٦) ومعجم البلدان لياقوت (٦ : ٦٨٨ و ٥٧١) ثم de Goeje: *Mémoires d'Hist. et de Géogr. Orientales*, 2 éd., 1900, p. 6-9

٢) راجع كتاب الاغاني (١٩ : ٩٥) وروايات الاغاني (٢ : ١—٥) راجع ايضاً مجلة الدروس اليهوديَّة (Revue des Etudes Juives VII, 167 et X, 10)

(judéo-chrétiennes) شاعت خصوصاً في نواحي العرب كشيع الناصريين (Nazaréens) والابيونيين (Ebionites) والكسائيين (Elkésaïtes) وقد ذكرهم الكتبة الكنسيُّون في القرون الاولى كاوسابيوس المؤرخ (١ واوريجانس المعلم (٢ ويوستينوس الشهيد (٣ والقديس ابيفانيوس (٤ في تاريخ الهرطقات والقديس هيرونيموس في كتاب الاعلام (٥ وتاودوريطس (٦ وصاحب الفلسفيات (٧ وذكروا علاقاتهم مع المسيحيين

واستشهدوا بما كان لديهم من الآثار النصرانيَّة. وقد وجد الاثريُّون في زماننا بعض تلك الآثار المكتوبة بالحرف السرياني الفلسطيني ونشروها بينها فصول انجيليَّة وطقوس ورُتَب بيعيَّة

وبعض هذه البدع التي انتشرت في جهات العرب بالغ اصحابها في اضاليلهم فنبذ النصارى مزاعمهم وقبَّحوها كالقطائريين (Collyridiens) الذين كانوا يبالغون في عبادة مريم العذراء. فيقدّمون لها نوعاً من القرابين اخصُّها اقراص العجين والفطائر وقد ذكرهم القديس ابيفانيوس في كتاب الهرطقات (٨ ولعلّ هؤلاء المبتدعين هم الذين دعاهم ابن بطريق (٩ بالمريمَّة والبرهانيَّة فافادنا انهم كانوا يقولون « انَّ المسيح وامَّهُ الهان من دون الله ». وقد وصفهم بذلك ابن تيميَّة في كتابه الجواب الصحيح ودعاهم بالمريمانيين او المريمانيَّة. وعلى هذا البناء شرح مفسّرو القرآن قولهُ: في سورة المائدة « اتّخذوني وامي الهين » وقالوا في شرح قوله في سورة النساء « ولا تقولوا

---

١) اطلب تاريخهُ (Eusèbe, H. E., IV, 17 et 22)

٢) اطلب ردّهُ على قلسوس (Origenes c. Celsum, II, 3 et Hom. III, in Gen. n° 5)

٣) اطلب مذاكراتهِ (Justini *Dialog.*, c. IV, LXIII et LXXX)

٤) كتاب الهرطقات (Epiphan., *Hæres.* XXIX, 7, 9, 15, et XXX, 15-19)

٥) اطلب (Hieron. *De situ et nominibus*, Migne, XXIII, p. 888)

٦) كتابهُ في خرافات الامم (Theodoret, *fabul.* I, et II, 18)

٧) اطلب (Philosaphoumena, VII, 12, IX, 13, X, 17 et 29)

٨) اطلب (Epiphan., *Hæres.* 10)

٩) راجع طبعتنا (١٢٦)

ثلثة » اي لا تقولوا الآلهة ثلثـة الله والمسيح ومريم (كذا ورد في شرح البيضوي والزمخشري وغيرهما)

وقام غيرهم في انحاء العرب وتطرّفوا على عكس ذلك فانكروا على العذراء مريم دوامها في البتوليّة فسمّوهم لذلك بالمعادين لمريم (Antidicomarianites) وذكرهم القديس ابيفانيوس في كتاب البدع (١

وروى القديس ايلاريوس في رسالته الى قسطنطين الملك (٢ انّ فرعاً من اشياع اريوس ظهروا في جهات العرب وهو يدعوهم اقاقيين باسم اقاقيوس زعيمهم كانوا يذهبون الى ان السيد المسيح ليس هو ابن الله لزعمهم انّ من قال ذلك جعـل لله زوجة فخلطوا بين الولادة الجسديّة والولادة الالهيّة الروحية الازليّة المثبتة في الكتب المنزلة

وقد ذكر حضرة الاب انستاس الكرملي في احدى المقالات المنشورة في المشرق (٦٠ : ٦) بدعة أخرى وجد منها بقـايا في العراق تُعرف بالداؤدة او الداؤديين يعظّم اصحابها داود النبي ويكرمون السيد المسيح لكنّهم يجعلونهُ دون رتبة داود

فكلّ هذه البدع وغيرهـا التي شاعت خصوصاً بين القبائل اليهوديّة المتنصرة الساكنة في حدود الشام والحجاز شوّهت المعتقدات النصرانيّة الصحيحة في تلك البلاد

وبقي الامر على ذلك حتى قدمت الى يثرب بطون من عرب اليمن كبني الحرث ابن بهثة وبني شظيّة من غسان ولاسيما بني الاوس والخزرج من الازد الذين لحقوا بها بعد سيل العرم. لكنّهم اقاموا فيها كما روى صاحب الاغاني (١٩ : ٩٥) في جهد وضيق المعاش يرتزقون من الزراعة وكانت الاموال لليهود حتى قام بينهم في اواسط القرن السادس للمسيح احد شيوخهم وهو مالك بن عجلان فأوفد الى ملك في الشام من ملوك غسّان يُدعى ابا جُبَيْلة فاستنجدهُ على يهود يثرب فأنجدهُ واوقعا باشراف اليهود حتى ذلّوا وصار الامر الى الاوس والخزرج منذ ذاك الحين الى ظهور الاسلام ومنهم كان الانصار. وقد وقعت بين الاوس والخزرج حروب رواها صاحب الاغاني (٢ : ١٦٧ — ١٧٠) لا حاجة الى ذكرها

١) اطلب (Epiph., *Hares.* 78)

٢) اطلب مجموعة مين X (Migne, PP. LL.,)

اما دين الاوس والخزرج وبقيّة القبائل غير اليهوديّة التي كانت في يثرب وجهاتها فيظهر انهُ كان في اوّل امرها الشرك وانّها كانت تعبد المناة كما روى الشهرستاني في كتاب الملل والنحل (ص ٤٣٤ من طبعة لندن) لكنّها عدلت بعد ذلك الى النصرانيّة. ولنا على الامر ادلّة نوردها هنا عن مصادر موثوق بها

قد رأيت في اوّل هـذا الباب انّ دُعاة الدين المسيحي دخلوا بلاد الحجاز منذ قرون النصرانيّة الاولى بل روى اوّل مؤرخي الاسلام ابو جرير الطبري تقليدًا عن اهل المدينة ذكروا فيهِ وجود قبر لاحد رسل السيد المسيح في جبل العقيق المجاور لبلدهم

ومن الادلّة على نصرانيّة عرب المدينة ان الاوس والخزرج ينتسبون الى الحارث ابن ثعلبة فيرتقي نسبهم الى بني غسّان. ونصرانيّة غسّان ثابتة لا يشكُّ فيها الّا من كابر الحقّ كما رأيت افليس من الصواب أن يقال انّ الاوس والخزرج دانوا بديانة غسّان. وزد على ذلك انّ أبا جُبَيْـلة الغسّاني ملك الشام المعروف بنصرانيّتهِ ما كان لينصر الاوس والخزرج على يهود المدينة كما مرّ بك لولا علمهُ انهم يدينون بدينهِ

ولنا على ذلك برهان آخر اقرب وادلّ وهو الاسم المُطلق على اهل مدينة يثرب الذين كانوا يُدعون باهل الكتاب. قال الشهرستاني في الملل والنحل (ص ١٦٢ من طبعة لندن): « الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم اهل الكتاب والاُمّيون والاُمّي من لا يعرف الكتابة فكانت اليهود والنصارى بالمدينـة والاُمّيون بمكّة » فينتج عن قولهِ هـذا انّ اهل المدينة كانوا منقسمين قسمين قسم يهودي كقريظة والنضير وقسم نصراني وهم عرب الاوس والخزرج وقضاعة الذين كانوا يسكنون المدينة

وجاء في التقويم القديم للكنيسة الكلدانيّة الذي نشرهُ الخوري بطرس عزيز سنة ١٩٠٩ (ص٨) ان النـاطرة « اقاموا مطروبوليطاً في يثرب وانّهُ كان فيها ثلاث كنائس على اسم ابراهيم الخليل وأيوب الصديق وموسى الكليم » وهي رواية وجدناها في غير هذا التقويم ثم في تقويم آخر مخطوط مثلهُ لاحد اهل الموصل والله اعلم بصحّتها

على انّ وجود النصارى في المدينة قبل الاسلام وفي اوائل ظهوره ان الامور التي لا يمكن نكرانها. لانّ النصارى كانوا بلغوا اقاصي تخوم العرب فما قولك بالبلاد المجاورة لممالك الروم. وهذا ما اقرّ بهِ المستشرقون في كتبهم الحديثة . قال

احد انتشهم العلّامة ڤلهاوزن (١ : « انّ محمّدًا وجد الطريق ممهّدة في المدينة بواسطة اليهوديّة والنصرانيّة لانّ هناك كان يهود كثيرون ثم لوقوع المدينة على حدود الرومان واليونان وتحت نفوذ النصارى الآراميين ». ومثلهُ قال هرتويغ درنبورغ الموسوي من اساتذة اللغات الشرقيّة في باريس المتوفي سنة ١٩١٠ : « كان للنصرانيّة تبعة متعدّدون في جزيرة العرب فكانت مالكة على شمالها بدواتي الحيرة وغسان وعلى وسطها في المدينة وعلى جنوبها باستقفيّات اليمن (٢) »

وبقي النصارى في يثرب حتّى بعد وفاة نبيّ الاسلام كما يدلُّ عليهِ قول حسّان ابن ثابت في داليّتهِ التي رثى بها محمّدًا (طبعة ليدن Hirschfeld, p. 59) :

« فرحت نصارى يثربَ وجودُها »

ولعل النصارى واليهود بقوا في المدينة الى عهد عمر بن الخطّاب الذي اخرج الفريقين من جزيرة العرب استنادًا الى ما رُوي في الحديث : « لاخرجنّ النصارى واليهود من جزيرة العرب »

ولمّا اراد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) ان يجدّد عمارة المسجد الكبير المعروف بمسجد النبي في المدينة كان بُناتهُ من نصارى الروم والقبط كما روى المؤرخون. واخبر الطبري (٢ : ١١٧) « انّ ملك الروم بعث اليهِ بمائة عامل ومائة الف مثقال ذهب واربعين حملًا من الفسيفساء. فبنوا المسجد وجعلوا طولهُ مائتَيْ ذراع في مثلها ». وقيل انّ بعض المدنيين لم يستحسنوا العمل اذ رأوهُ شبيهاً بكنيسة

(لهُ تابع)

١) هذا قولهُ بالحرف في كتابهِ عن ملك العرب WELLHAUSEN: *Das arabische Reich und sein Sturz* (p. 4) : « In Medina war der Boden für Mohammed vorbereitet durch das Judentum und Christentum ; es gab dort viele Juden und die Stadt lag an der Grenze desjenigen Teils von Arabien, der under griechisch-roemischen und christlich-aramaischem Einfluss stand »

٢) ودونك قولهُ H. DERENBOURG: *Opuscules d'un Arabisant* (p. 16) : « Le Christianisme comptait en Arabie de nombreux adhérents ; il dominait le Nord par les rois de Hira et de Ghassan, le Centre par Médine, le Sud par les évêchés du Yémen »